

سورة التوبة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ
شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ

[التوبة: 17]

معاني الكلمات :

(ما كان للمشركين) يعني: ما صح لهم ولا استقام.
(أن يعمروا مساجد الله) أي: المساجد التي بنيت على اسمه وحده
لا شريك له، ما كان لهم أن يعمروا شيئاً منها، ولا شك أن هذا
يدخل فيه المسجد الحرام دخولاً أولاً، إذ نفى الجمع يدل على
النفي عن كل فرد، فيلزم نفيه عن الفرد المعين بطريق الكناية.
وقرئ: (ما كان للمشركين أن يعمروا مسجد الله) بالتوحيد، تصريحاً
بالمقصود، وهو: المسجد الحرام، أشرف المساجد في الأرض، الذي
بني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له، وأساسه خليل
الرحمن.

قوله: (أن يعمروا مساجد الله) إما أن العمارة هنا بمعنى: حفظ
البناء، أو من العمرة؛ لأن العمرة معناها: الزيارة، يعني: يزوروا
مسجد الله، أو من قولهم: عمرت بمكان كذا، يعني: أقمت به.
(شاهدين على أنفسهم بالكفر) يعني: بلسان الحال ولسان المقال.
(أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون)، وهذا كقوله تعالى:
{وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا
كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَفَتُونَ} [الأنفال: 34]

المعنى الإجمالي :

بعد ان فتح المسلمون مكة، وظهر الرسول المسجد الحرام مما كان فيه
من الأصنام، بقي ان يطهره من العبادات الباطلة التي كان المشركون
يقيمونها فيه. فأرسل علي بن أبي طالب وأمره ان يتلو على مسامع
الحجيج أوائل سورة التوبة يوم الحج الأكبر الى مكة. وكان مما تضمنه
هذا البلاغ العام ان يعلم اهل مكة المشركون ان عبادتهم الباطلة
ستمنع من المسجد الحرام، بعد ذلك العام. وقد نادى علي ومن معه
في يوم النحر بمي: لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت
عريان.

لا يحق للمشركين ان يعمروا مساجد الله بالعبادة او الخدمة والولاية،
ولا ان يزوروها حجاً أو متعمرين، ما داموا مستمرين على كفرهم.
وليس بعد الآن تردد في حرمانهم من زيارة البيت الحرام او عمارته، انما
تكون عمارته بالعبادة الصحيحة حقاً خالصاً للمؤمنين بالله، القائمين
بفرائضه.

وقوله تعالى {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ} .

اولئك المشركون لا اعتداد بأعمالهم، ولا ثواب لهم عليها، وهم
مقيمون في دار العذاب إقامة خلود وبقاء، لكفرهم، وصددهم عن
سبيل الله.

{إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى
الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ} .

ان المستحقين لعمارة المساجد هم الجامعون بين الإيمان بالله وحده
والإيمان باليوم الآخر، الذين أدوا الصلاة على وجهها، وأخرجوا
الزكاة، ولم يخشوا الا الله وحده.

وقول تعالى: " مَا كَانَ " أي ما ينبغي ولا يليق " لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا
مَسَاجِدَ اللَّهِ " بالعبادة، والصلاة، وغيرها من أنواع الطاعات، والحال
أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر، بشهادة حالهم وفطرتهم،
وعلم كثير منهم، أنهم على الكفر والباطل .

فإذا كانوا " شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ " وعدم
الإيمان، الذي هو شرط لقبول الأعمال، فكيف
يزعمون أنهم عُمَّارُ مساجد الله، والأصل منهم
مفقود، والأعمال منهم باطلة؟! .
ولهذا قال: " أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ " أي: بطلت
وصلت " وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ. "

أي ما كان لهم ذلك حال كونهم شاهدين على
أنفسهم بالكفر، بإظهار ما هو كفر من نصب
الأوثان والعبادة لها وجعلها آلهة، يعني يعبدونها من
دون الله تعالى، فإن هذا شهادة منهم على أنفسهم
بالكفر وإن أبوا ذلك بأنفسهم، يعني شهدوا
بالفعل، ومَرَّ معنا أن الشهادة قد تكون بالفعل كما
تكون بالقول، وذكرنا هذه الآية، فإذا كانوا
شاهدين على أنفسهم بالكفر فكيف يجمعون بين
أمرين متنافيين: - عمارة المساجد التي هي من شأن
المؤمنين.

- والشهادة على أنفسهم بالكفر التي ليست من
شأن من يتقرب إلى الله بعمارة مساجده.

ثم أمران متنافيان، كيف شهدوا على أنفسهم
بفعلهم وإن نفوا ذلك بأنفسهم فقد وقعوا في
الكفر الأكبر والشرك بالله تعالى، وهذا ليس من
شأنه أن يكون عامراً لمساجد الله تعالى، إنما هو من
شأن من آمن بالله واليوم الآخر، ثم بين سبحانه بعد
ذلك النفي عن المشركين أن يكونوا من عمار
مساجد الله، بين سبحانه مَنْ هو حقيق بعمارة
المساجد فقال: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ

سلسلة تفسير القرآن العظيم الإصدار رقم (1)



فوائدها من سورة النوبة

الآية 17

تهدى ولا تباع

ولا تنسوننا من صالح دعائكم

أعدّها عزمي إبراهيم عزيز

10- حرمة دخول الكافر المساجد إلا لحاجة وبإذن من المسلمين.
11- فضيلة المسلم وشرفه، إذ كل من يسأل عن دينه يجيب بجواب هو الكفر إلا المسلم فإنه يقول: مسلم أي الله تعالى فهو إذا المؤمن وغيره الكافر.

12- فضيلة عمارة المساجد بالعبادة فيها وتطهيرها وصيانتها.
13- الذين يدعون عمارة المسجد وما يضاهاها من أعمال البر مع ما بهم من الكفر

{حِطَّتْ أَعْمَالُهُمُ} التي يفتخرون بها بما قارنوها من الكفر فصارت هباء منثوراً {وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ} لكفرهم ومعاصيهم.

14- المشركون لا اعتداد بأعمالهم، ولا ثواب لهم عليها، وهم مقيمون في دار العذاب إقامة خلود وبقاء، لكفرهم، وصدهم عن سبيل الله.

15- المسجد للعبادة، والعبادة تقتضي معبوداً هو الله سبحانه وتعالى، والكفار يشركون بالله، فمن المنطق - إذن - ألا يكون لهم دخل بالمساجد، إذن فمنعهم من المسجد إقامة وعمارة وزيارة هو شيء منطقي بشهادتهم على أنفسهم بالكفر، وهي سبب منعهم من الاقتراب من مساجد الله.

16- الشهادة إما أن تكون شهادة قول؛ وإما أن تكون شهادة حال، أما شهادة القول فذلك لأنهم كانوا يقولون لليهودي: على أي دين أنت؟ فيرد بديانته، وكذلك القول للنصراني، وحين يسأل المشرك؛ فهو يقر بشركه، هذه هي شهادة القول.

أما شهادة الحال فهي أنهم يسجدون للأصنام ويعبدونها من دون الله.
17- أن المسجد موضع السجود، فكل بقعة من المسجد الحرام فهي مسجد.

والله اعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى اله وصحبه وسلم

الفوائد :

1- الأصل ألا تكون للكافر منة على المسلم وهذا محرم شرعاً ممنوع.

2- أصل العبادة أنها مبنية على الإخلاص، فلئها الإخلاص، وتحقيق الإخلاص من الكافر هذا ممتنع .

3- لا يني المسجد الحرام كافر، ولا يعمره كافر، ولا تصح العمارة منه، كذلك غير المسجد الحرام لا يصح بناؤه من كافر، .

4- هذا الفعل منهم شهادة بكفرهم ودلالة على أنهم لم يوحدا الله سبحانه وتعالى.

5- الخراب الحقيقي هو الخراب المعنوي؛ والعمارة الحقيقية للمساجد إنما تكون بذكر الله وإقامة الصلاة فيها، وتعلم العلم وتعليمه وغير ذلك مما فيه قوام المسلمين.

6- الحقيقي للمساجد المتمثل بتعطيلها عن ذكر الله، وعن الصلاة، وهذا من الصد عن ذكر الله.

7- من سعى في خراب المسجد فإنه متوعد بالعذاب، بل صار من زمرة الكفار . قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 114]

8- الكفر في حد ذاته موجب للحرمان من عمارة أصحابه مساجد الله ، لأنها مساجد الله فلا حق لغير الله فيها ، ثم هي قد أقيمت لعبادة الله لا لغيره .

9- شهادتهم على أنفسهم بالكفر حاصلة في كثير من أقوالهم وأعمالهم ، بحيث لا يستطيعون إنكار ذلك ، مثل قولهم في التلبية " لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك " ، ومثل سجودهم للأصنام ، وطوافهم بها ، ووضعهم إياها في جوف الكعبة وحولها وعلى سطحها .